

اختيار
al-khtyar
مطبوعة غير دورية



3



«إن الآراء المذكورة في هذا العدد، تعبر عن آراء كتابها فقط ولا تعكس بالضرورة آراء وتوجهات مجموعة اختيار».

فريق التحرير

مي بانقا وسالي الحق

مستشارو التحرير

سماح جعفر وتامر موافي

تصميم

عمر مصطفى



المحتوى

مقدمة	1	
أحمد بكر	اليسار الثوري المصري والنسوية: زواج لم يتم	2
مارينا	ورأي الله ذلك انه حسن جدا	3
الراوية	في حضرة الشك	4
إيمان شحاتة	خطابات الحداثة وإنتاج الجسد	5
مارادام	جيناتي التعيسة	6
مي طراف	بيريود	7
مغازي	مشاعرنا ايضا سياسية	8

مقدمة

إن حاجتنا كنسويات نسعى بفعل فردانيتنا لإيجاد نقطة يمكن أن تلتقي فيها تجاربنا باختلافها ومساحة تستوعب توحشنا برحابة، وهوياتنا بغبطة، ولا تجبرنا على التماهي الفظ والانخراط الخانق؛ مساحة لا ترانا داخل الحدود الضيقة صرامة الحياة اليومية العابسة بل تسمح لنا بالتعبير، كفعل تفكير وكحق لكل إنسان . واستكمالاً لالتزامنا ورغبتنا بتقديم وإتاحة هذه المساحة وسعيًا للمشاركة بمحتوى معرفي نسوي عن النوع الاجتماعي والجنسانية باللغة العربية نقدم لكم دوريتنا الثالثة التي اختار أغلب كتابها أن يخوضوا/ن تجربة النشر لأول مرة! وقرروا/ن بذلك تحدي الأسئلة التي كانت تؤرقنا بحق حول الامتيازات التي تصاحب عملية الكتابة؛ بدايةً بمن هو الكاتب؟ من يحق له الكتابة؟ من يحظي بالأولوية ليُسمع ويُقرأ وينشر له؟ من يحدد الثقافة المهيمنة والأطر التي من المفترض أن تكون الكتابة داخلها، وما هي الأولويات التي يجب التحديث عنها كنسويات وكنسويين آليات وآتون من خلفيات مختلفة بهويات مختلفة؟

يخرج العدد الثالث باجتهادات وأصوات من انخرطوا وانخرطن في الحلقات الدراسية ومجموعات القراءة التي لم يكن الهدف منها إتاحة المعرفة فقط لكن أيضًا خلق عملية تشاركية للنقد والتحليل وتكسير المفاهيم المتعلقة بالنوع الاجتماعي والنسوية، فكتبوا في هذا العدد عن أجسادهن/م وهوياتهن/م، ناقدين الأنظمة المتحكمة في حياتنا كالأبوية والتمييز على أساس الجنس والنوع الاجتماعي، كتبوا عن المؤسسات الاجتماعية المحافظة ومؤسسة الصحة النفسية وأيضًا الحركات الدينية، كتبوا عن الحركة اليسارية، الجينات التعسة، وإنتاج الجسد داخل خطابات الحداثة، وكانوا **«فوق كل شيء بسطاء، مباشرين، ولحظيين»**. غلوريا أنزلدوا* بتصرف.

وحدة الإنتاج المعرفي باختيار

أحمد بكر

اليسار الثوري
المصري والتسوية:
زواج لم يتم

مع ١٣٣ عاما تفصلنا عن وفاة كارل ماركس^١، يختلف القائلون بانتمائهم لأفكار الفيلسوف الألماني في مصر اختلافاتٍ جذرية حول أساليب التحول الاجتماعي، وإن كانوا يجمعون - ولو قولاً - على أن الهدف النهائي هو الوصول إلى مجتمع ينتفي فيه احتكار طبقة بعينها لوسائل الانتاج وتنتهي فيه صور الاضطهاد المختلفة، ومنها اضطهاد النساء. نظرا لهذه الاختلافات الشاسعة التي تبدأ من أول الراغبين في العمل في كنف السلطة السياسية ذاتها - مبررات نظرية مختلفة وأسباب ليس هنا مكان تحليلها - وبين المؤمنين بضرورة التغيير الثوري والحراك القاعدي من أجل تحقيق أهدافهم الاشتراكية، فأنا بحكم موقعي وغرضي السياسي سأركز هنا على الفريق الثاني: مجموعات اليسار الثوري.

مع تأكدي من حسن النيّة لدى المجموعات اليسارية الجذرية في مصر فيما يخص رفضهم لأشكال الاضطهاد على أساس الهوية الجندرية والميول الجنسية، فإن أطروحاتهم تعاني من عدّة إشكاليات تنبع بشكل أساسي من اعتمادها على نظرات كلاسيكية لطبيعة الاضطهاد المرتبط بالنوع الاجتماعي، مما قاد إلى أداء سياسي يقع دون قصد في إطار الاختزالية reductionism والاقتصادوية economism.

يركز تحليل كارل ماركس وفريدريك إنجلز^٢ لاضطهاد النساء على ربطه بالتاريخ الإنساني لتطور أدوات إنتاج المعيشة وأنماط الإنتاج والتنظيم السياسي والاجتماعي المرتبطة بهذا التطور، وكيف ساهمت الأشكال المختلفة لتقسيم العمل وملكية أقلية طبقية لأدوات الإنتاج تلك في خلق أدوار نمطية معينة لكل من النساء والرجال، اتجهت تاريخيا نحو نزع السلطة وحق التملك بل والإنسانية عن النساء^٣، وصولا إلى

١ كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) فيلسوف ألماني واقتصادي وعالم اجتماع ومؤرخ وصحفي واشتراكي ثوري، أسست كتاباته الاقتصادية والفلسفية والسياسية بالتشارك مع زميله فريدريك إنجلز، من أهمها البيان الشيوعي (١٨٤٨) ورأس المال (١٨٦٧-١٨٩٤)، لتطوير الحركات الاشتراكية وتكوين كل التيارات السياسية والفلسفية المنتمية للماركسية.

٢ فريدريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥) فيلسوف ألماني وعالم اجتماع وصحفي ورجل صناعة واشتراكي ثوري، تشارك مع زميله كارل ماركس في تأسيس النظرية الماركسية وأسهمت كتاباته، من أهمها البيان الشيوعي (١٨٤٨) وأصل العائلة والملكية الخاصة والدولة (١٨٨٤)، في تطوير الحركات الاشتراكية.

٣ كان ذلك أحد المحاور الرئيسية لكتاب إنجلز، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة (١٨٨٤).

النظام الرأسمالي واستغلاله للأسرة النووية وعمل النساء المنزلي كمخفف لآلام الرجال العاملين وكوسيلة لضمان توارث رؤوس الأموال في الطبقات الحاكمة. هنا أيضا يتحدثان عن تفكيك النفاق الواضح في الزواج الأحادي وارتباطه بالعمل الجنسي، فالنساء فقط مطالبات بالالتزام بهذه الأحادية لوقوعهن وأطفالهن في ملكية الزوج ورغبته في توريث أبنائه^٤.

تأتي بعد ذلك بعدة عقود إضافة النساء الماركسيات اللاتي عاصرن الثورة الروسية في ١٩١٧ مثل الروسية ألكساندرا كولونتاي^٥ والألمانية كلارا زتكين^٦ وغيرهن، واللاتي عاصرن أيضا الموجة الأولى من النسوية ومطالبها بحق النساء في الاقتراع والتملك. قام هؤلاء النسويات الماركسيات بنقد الأفق البرجوازي لمطالب الموجة النسوية الأولى، المرتبطة بمصالح شريحة مميزة من النساء يردن التساوي مع الرجال من نفس طبقتهم مع تجاهل المطالب الأكثر جذرية لنساء باقي الطبقات، خاصة النساء العاملات. إلى هنا يتوقف التراث النظري فيما يخص قضايا النوع الاجتماعي عند أغلب اليسار الثوري المصري، في هذا الانقطاع تكمن المشكلة.

هذه القراءة للاضطهاد الجندري، رغم أهميتها، محدودة بزمان ومكان كتابتها. الأزمة هي

٤ لم يكتب كارل ماركس نسا كاملا عن نظرتة للأسرة واضطهاد النساء ولكنه تناول الموضوع في عدة نصوص مختلفة منها المخطوطات الاقتصادية والفلسفية (١٨٤٤)، بوشيه: عن الانتحار (١٨٤٥)، البيان الشيوعي (١٨٤٨)، رأس المال (١٨٦٧-١٨٩٤) وملاحظاته على كتاب التاريخ القديم للويس ه. مورجان (١٨٧٧) والتي اعتمد عليها إنجلز في كتابه.

٥ ألكساندرا كولونتاي (١٨٧٢-١٩٥٢) سياسية شيوعية روسية كانت من أبرز نساء الحركة الشيوعية الروسية وعضوة في الحزب البلشفي، لها إسهامات مهمة في تنظيم النساء العاملات في بلدها وإسهامات نظرية عن الأسس الاجتماعية للاضطهاد للنساء وعن الحب الحر. ترجمت حركة الاشتراكيين الثوريين العديد من كتاباتها إلى العربية، يمكن الوصول لها هنا.

٦ كلارا زتكين (١٨٥٧-١٩٣٣) سياسية شيوعية ونسوية ألمانية كانت من المشاركات في تأسيس الحزب الشيوعي الألماني وساهمت في تنظيم العاملات الألمانيات وتأسيس المؤتمر الدولي للنساء الاشتراكيات وأطلقت من خلاله الاحتفال بيوم المرأة العالمي في ٨ مارس من كل عام.

التوقف عن تطوير هذه القراءة للاضطهاد التي تعود لعصور وظروف سابقة، وهو ما يخلق أطروحات هي ضحية لنفس منظومة الثنائيات التي تفرضها السلطة، لتصبح الشعارات الحالية للمعركة هي مساواة المرأة مع الرجل، أو مثلي الجنس مع الغيري أو المتحول جنسيا مع غير المتحولين، دون اعتبار للواقعين خارج هذه التصنيفات ودون تفكيك التصنيفات ذاتها وقراءة تاريخها وعلاقتها بالسلطة في إطار معاصر ومحلي بشكل نقدي، بالإضافة لإهمال التقاطعات بين أشكال القمع الجندري المختلفة وكذلك التقاطعات بين القمع على أساس النوع الاجتماعي وبين أشكال القمع الأخرى كتلك المرتبطة بالدين والقومية والعرق. ليست الإشكاليات هنا نتيجة لقصور في قدرة النظرية الماركسية على التوسع لتتناول هذه المعضلات، على العكس فأنا اعتقد بأن هذه النصوص الكلاسيكية تحوي الأسس التي يمكن من خلالها خلق مساهمات حقيقية في الجدالات حول البناء الاجتماعي للهويات الجندرية وتاريخ الجنسانية وعلاقة قوالب مثل الأسرة والأدوار الاجتماعية بمنظومة السلطة الحاكمة، وهو بالفعل - كما سنستعرض سريعا - ما قام به العديد من المنتمين للماركسية في دول وسياقات مختلفة. أزمة اليسار الثوري في مصر مرتبطة بالجمود عند النصوص الكلاسيكية في العديد من القضايا ولدي عدة تصورات عن السبب وراء ذلك.

في رأيي، فإن الأزمة لدى تيارات اليسار الجندري في مصر - بالأخص أكبرهم حجما وهي حركة الاشتراكيين الثوريين - في التعامل مع تراثها النظري ومحاولات تطوير إنتاجها النظري الخاص تكمن في ظروف نشأتها. فقد نشأت أغلب هذه المجموعات في مصر تزامنا مع انهيار الاتحاد السوفيتي، الأرض المقدسة لدى اليسار المصري القديم، وفي ظروف الهزيمة السياسية لهذا اليسار على يد هيمنة الإسلاميين وتحول الكثير من رموزهم تدريجيا إلى أداة دولية عقيمة في يد السلطة الحاكمة، وفي ظل تجريف العمل السياسي خلال العقد الأول من حكم محمد حسني مبارك.

كان الأساس السياسي والنظري لهذه المجموعات هو رفض نموذج الاتحاد السوفيتي السلطوي مع الاستمرار في رفض الرأسمالية من منظور اشتراكي، متبنين تحليلات رافضة للستالينية كتشويه للماركسية وكونها سببا رئيسيا وراء التوجهات القومية والدولية السائدة قبلها في دوائر اليسار المصري، وبالتالي كان

أحد التوجهات الرئيسية في مواجهة هذا التشويه هو العودة إلى الكتابات الماركسية القديمة، والاعتماد بشكل أساسي على ماركس وإنجلز وأيضا فلاديمير لينين^٧ وليون تروتسكي^٨، بالإضافة إلى الكتابات العالمية المنتمية لنفس اليسار المعادي للستالينية.

كان ذلك في رأيي إنجازا نجح في استعادة الاحترام والأهمية للأفكار الراديكالية الموجودة في الماركسية، بعد أن كادت تتحول إلى مجرد نكهة أخرى من نكهات مثقفي السلطة، ولكن عاملا سلبيا آراه تغلغل بالتدرج كنتيجة هذا الموقف المعتمد على «استعادة التراث» و«حمايته من التحريف» هو الاعتماد الكبير على سلطة النصوص القديمة في النقاشات السياسية، حتى بين من لم يمسا هذا التراث إلا بشكل سطحي واكتفوا بقراءة التبسيطات والشروح التي تصب في وجهة النظر المعادية للستالينية، مما يعيق فرص التطور.

كما يظهر نوع من العدائية أحيانا تجاه كل الرؤى النظرية المغايرة دون تناولها بعمق ولو من باب النقد، من ضمنها للأسف مدارس أخرى مهمة في الماركسية لم يتم تناولها إلا بشكل عابر. على سبيل المثال، تعتمد كتابات وترجمات أغلب هذه المجموعات في تقديمها للماركسية وثورة الطبقة العاملة كحل لاضطهاد النساء والمثليين وغيرهن على التلخيص المخل والمبغض للحركات النسوية كلها على أنها جميعا تحمل نفس خطاب النسوية الدولية أو البرجوازية، وهو - ببساطة - غير الواقع^٩.

٧ فلاديمير لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) شيوعي ثوري روسي ومنظر سياسي ماركسي، كان أحد قادة الثورة الروسية ١٩١٧ وأحد مؤسسي الحزب البلشفي، له إسهامات أساسية في السياسية الشيوعية عُرفت بـ «اللينينية»، من أهم كتاباته ما العمل (١٨٦٣) والدولة والثورة (١٩١٧)

٨ ليون تروتسكي (١٨٧٩-١٩٤٠) شيوعي ثوري روسي ومنظر سياسي ماركسي، كان أحد قادة الثورة الروسية ١٩١٧ ومؤسس الجيش الأحمر. له العديد من إسهامات النظرية والسياسية المهمة، أهمها الإسهامات ارتبطت بتحليله للتجربة الروسية ونقده للستالينية، وهي ما عُرفت بـ «التروتسكية». من المهم الإشارة هنا أن اليسار الثوري المصري ينتمي أغلب أفراد ومجموعاته للتروتسكية أو على الأقل مروا على أفكاره في فترة من تاريخهم. لم أتناول هذه النقطة بالتفصيل هنا لأن تروتسكي لم يتناول اضطهاد المرأة بشكل خاص في كتاباته.

٩ للأسف فهذه الفكرة متكررة في أغلب النصوص التي تعتبرها حركة الاشتراكيين الثوريين والدوائر المتأثرة بهم أساسية في شرح

يمكنني التماس العذر قليلا بالنسبة للموقف من النسوية على الأقل لأن الحركات النسوية المنتمة للموجة الثالثة وللأفكار الأكثر راديكالية في فهمها للجنس ولتراتبية القهر لم تبدأ في فصل نفسها عن المجال النسوي السائد إلا قريبا جدا، وكتابتهم وترجماتهم إلى العربية قليلة جدا، ولكن هذا موضوع آخر لا يكفي تناوله هنا سريعا.

لأ أعني بالطبع أن اليسار الجذري لم ينتج تحليلاته السياسية المعاصرة ومواقفه الخاصة، حتى فيما يخص القضايا النسوية، ولكنهم يتوقفون قبل عبور عتبة تكوين سياقهم النظري الخاص المتناسك، ويكتفون بنسب إنتاجهم النظري للتراث القديم. أحد العوامل الرئيسية في المشكلة هو أنه رغم الانفصال وحتى العداء النظري مع اليسار القديم، فأغلب الأجيال الأولى من اليسار الجذري الحديث كانت قد تربت على أسلوب اليسار القديم في العمل السياسي، متورثين عنه الميل نحو النشاط والأولوية للنضال الاقتصادي فوق ما يرونه «قضايا ثانوية» والميل لتكرار الممارسات المعتادة بدلا عن نقدها. من الواجب الإشارة هنا إلى أن أغلب هذه المجموعات قد مرّ بمراحل من النقد الذاتي والجدالات النظرية ضد الميل العمالي والاقتصادي ويعرّفونها بشكل واضح كمشاكل يجب تخطيها، ولكن يبقى التحول الكامل في الممارسة على هذه المراجعات عملية غير مكتملة.

كل ذلك لعب دورا في جعل علاقة اليسار الجذري المصري بقضايا الجنس والاضطهاد على أساس الجنس والميول الجنسية علاقة إشكالية جدا، فبين التصورات النظرية البدائية والميل الدائم إلى تعويض نقص التطور النظري بالانهماك في النشاط، وقع تناولهم للقضايا النساء بين الإهمال تارة وبين تقديم الدعم الخطابي فقط في القضايا التي أصبحت ملحة بفضل الحركة النسوية السائدة، مثل رفض العنف الجنسي، ولكن دون اشتباك ملموس مع القضايا.

وطبعا يظهر التغاضي التام عن قضايا الميول الجنسية والتحول الجندري. جانب من السبب هو

الموقف من اضطهاد المرأة، مثل النضال الطبقي وتحرر المرأة لتوني كليف (١٩٨٤) وكيف تعمل الماركسية لكريس هارمان (١٩٧٩)، والتي تعود أغلبها لعصر المنافسات بين الماركسية ونسوية الموجة الثانية في بريطانيا والولايات المتحدة.

خوف من الصدام مع المجتمع والذي يخشون أن يعيق نشاطهم السياسي المعتاد خاصة من ضيق المجال السياسي في ظل السلطة الحالية، ولكن جانبا آخر من السبب هو قلة المعرفة حول الموضوع، أساسا كنتيجة لعدم السعي وراء الاستماع لأصوات الأقليات الجندرية والجنسية، فتخرج المواقف الداعمة لتلك الأقليات كمواقف فردية للمنتمين للتيار وليس مواقف رسمية مدعومة بأي تحليل عن الهويات الجندرية أو الجنس.

مثلا ذكرت سابقا، لا أعني بكلامي هذا أنه لا يمكن للماركسية الإضافة لقضايا الجندر والجنسانية، بل الحقيقة أن المجال لمثل هذه الإضافة موجود بالفعل. على سبيل المثال، يتحدث ماركس عن تحول العلاقات الاجتماعية التي تطورت في حياة البشر بحسب احتياجاتهم وشكل تجماعتهم إلى حقائق طبيعية أو نتائج لقوانين الكون أو الإرادة الإلهية، وهو ما أسماه بالتشيؤ^{١٠} reification وبالتالي تصبح هي ما يحكم حياة البشر بشكل مستقل عنهم بل وفوقهم. مثلما استُخدمت هذه النظرية في فهم تطور علاقات الإنتاج وقيمة السلع، فإنه يمكن توظيفها في فهم تطور العلاقات الجنسية بين البشر وعلاقة الإنسان بذاته وتعريفه لها، كيف تطورت هذه العلاقات عبر التاريخ وظروف تكوينها، وكيف وصلنا إلى القوالب الجندرية والجنسانية السائدة حاليا.

طور الفيلسوف الماركسي الفرنسي لوي ألتوسير^{١١} الحديث عن الأيديولوجيا بمفهومه عن الاستجواب^{١٢} interpellation، حيث تحدث عن أن ما أسماه «أجهزة الدولة الأيديولوجية» تمارس

١٠ لم يكن التشيؤ مصطلحا بارزا في أعمال ماركس نفسه، ولكن تطورت أهميته من خلال كتابات الفيلسوف والناقد الماركسي المجري جورج لوكاش (١٨٨٥-١٩٧١)، بدءاً من كتابه الأشهر التاريخ والوعي الطبقي (١٩٢٣)، وأصبح مفهوما مؤثرا على كثير من المنظرين الماركسيين مثل مدرسة فرانكفورت.

١١ لوي ألتوسير (١٩١٨-١٩٩٠) فيلسوف ماركسي فرنسي، ارتبطت أعماله بتيار الماركسية البنوية وتطوير مفاهيم مثل أجهزة الدولة الأيديولوجية، والاستجواب، والقطع المعرفي في كتابات ماركس.

١٢ طُور ألتوسير هذا المفهوم في مقاله الأيديولوجيا وأجهزة الدولة الأيديولوجية (١٩٧٠).

إخضاعنا لسلطة الطبقة الحاكمة عن طريق تعريفها للأشخاص بالصفات والهويات التي تفرضها، وهي رؤية وظيفتها جوديث باتلر حين قالت أن تعريف الطفل في لحظة الولادة كولد أو بنت هو بداية إخضاعه للقوالب الجندرية السائدة بكل ما تحمله من تعقيدات.

نقطة أخرى تستطيع الماركسية الإسهام فيها هي التطوير على التحليلات الكلاسيكية عن علاقة الاضطهاد الجندري بالاقتصاد. وهو تراث بنته الحركة النسوية الماركسية Marxist feminism في الغرب خلال النصف الثاني من القرن العشرين. طورت النسوية الماركسية قراءة ماركس وإنجلز لدور الأسرة النووية في اضطهاد النساء، حيث لاحظوا الدور الرئيسي للعمل المنزلي - الذي تفرضه أغلب المجتمعات على المرأة كجزء من هويتها ودورها الاجتماعي - في توفير الرعاية والخدمات الأساسية التي يحتاجها العمال حتى يمكنهم العودة إلى العمل يوميا وبدون أجر، وهو ما يلقي نظرة على أهمية استمرار منظومة الأسرة النووية في ظل الاقتصاد النيوليبرالي، كما أضاف إلى أهمية القوالب الجندرية التقليدية لهذا الاقتصاد. تساعد أدوات الماركسيات النسويات في التحليل اليوم في تناول قضايا مثلا تأنيث الفقر المتزايد في دول العالم الثالث ووضع النساء في العمل غير الرسمي وفي الأزمات الاقتصادية وغيرها من الجوانب الاقتصادية للاضطهاد الجندري.

ولكن مثلما يمكن للماركسية الإضافة إلى الجدالات النسوية، فلدى الماركسية الكثير لتتعلمه من النسوية أيضا. أهم ما قدمته الموجة الأخيرة للنسوية إلى النقاش حول الاضطهاد هو مفهوم التقاطعية intersectionality. توجيه الانتباه نحو تقاطعات بنى ومؤسسات السلطة المختلفة، وتعقيدات تلاقي القهر والتمييز الاجتماعي أو تلاقي أكثر من نوع من القهر، وما يتبعه ذلك من إدراك لواقع أن المجموعات والأشخاص المختلفين يتعرضون لقهر السلطة الحاكمة بصور مختلفة وبالتالي صعوبة اتفاهم على نفس الأولويات لمواجهة هذا القهر، كل ذلك يؤكد أن التقاطعية عامل رئيسي في تطوير أي رؤية معارضة للسلطة، خاصة بالنسبة للمجموعات المؤمنة بتفكيك بنى القهر وتغيير المجتمع بشكل جذري.

لا يوجد شيء واحد مجرد اسمه المرأة، ليست كل مصالح النساء واحدة ولا أولوياتهن، المثليون

في الطبقات العليا لا يواجهون نفس المخاطر ولا الظروف التي يواجهها المثليون في المناطق الأفقر، ولا يواجه كل العاملين بأجر نفس القهر بنفس الدرجة. أي محاولة جدية لبحث تعقيدات بناء أرضية مشتركة للنضال بين المقهورين ضد أنظمة القهر عليه أن يتعامل أولا مع هذا الواقع الذي تكشفه التقاطعية ويبتكر حولا تناسب هذه القراءة.

ليست تلك هي الأمثلة الوحيدة على أهمية التلاقي بين الماركسية والنسوية. في ختام الأمر، أعتقد أنه من المهم دائما إعادة اختبار الأسس التي ارتضيها لأفكارنا، علنا نكتشف ناقصة لم نلاحظها من قبل أو ظاهرة لا نستطيع تفسيرها بالشكل الكافي. لا مشكلة من إعادة طرح أسئلة قد أجبتها من قبل حتى لو قادتنا إلى نفس الإجابات السابقة، ولا عيب في تقبل أن بعض الأسئلة أصعب من تكون لها إجابة واحدة شافية.





مارينا

وَرَأَى اللهُ جَدًّا
خَسِيئًا تَتَمَتَّعُ

لقد كانت نوال السعداوي، ككاتبة وناشطة نسوية، في بداية مرحلة انتباهي للواقع المحيط بي، محط اهتمام الكثيرات من بنات جيلي سواء أولئك اللاتي بدأن يتمردن على أوضاع مجتمعية وبدأن في تبني كثير من الأفكار التي تطرحها أو على النقيض مهاجمة هذه الأفكار بل وامتد هذا الجدل ليطول شخص الكاتبة ذاتها.

وفي هذه المرحلة، لم أأخذ موقفاً بالسلب أو بالإيجاب من أفكار نوال السعداوي، فقد كانت أفكارها خارج نطاق الأفكار التي نشأت عليها، فلقد نشأت في أسرة مسيحية وتلقيت تربية وتعليماً محافظين في مدرسة راهبات تضع تنشئة الفتيات -أمهات المستقبل وفقاً للمصطلح الذي كانت تستخدمه المدرسة لوصفنا- دينياً وأخلاقياً على رأس أولوياتها. فلطالما رددت مديرة المدرسة مقولة حُفرت في ذاكرتي: «مهما كان مستقبلكن، ومهما كانت إنجازاتكن، ومهما كانت المناصب التي ستصلن إليها، فالإنجاز الأهم الذي ستقمن به أنكن ستصبحن أمهات، وأنا واجبي ودوري هو تنشئة و إعداد أمهات المستقبل». والمفارقة هنا أن مديرة المدرسة كانت راهبة، أي أنها قد كرست حياتها بالكامل لخدمة الرب، ولن تُقدم على الزواج وبالتبعية لن تصبح أما أبداً.

كانت المدرسة والكنيسة من أهم محطات تشكّل وعيي، فقد كانت الخطيئة هي محور الحديث دائماً، فلقد أصبحنا جميعاً مخطئين عندما أخطأ آدم وحواء، وقد كانت خطيئتهما هي التمرد وعدم الطاعة، فلقد كسرا وصية الإله و أكلا من الشجرة المحرمة.

وبعد الخطيئة كان العري.

فعندما «سَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسْطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ». فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لِأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا؟» فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْني مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ».

وبعد العُري كان العقاب.

فلقد عاقبهما الله بطردهما من الجنة، بعد أن قام بتحديد دور كل منهما في الأرض وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أَكْثَرُ أَنْعَابَ حَبْلِكَ، بِالْوَجَعِ تَلْدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجُلِكَ يَكُونُ اسْتِيْقَافُكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ». وَقَالَ لِآدَمَ: «لَأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الْأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَا تَنْبُتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْرًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لَأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ».

ومن هنا بدأت العلاقة بين خطيئة الروح والجسد، ففور تمرد آدم على الوصية، بدأ يخجل من جسده، وبدأت قوانين الحياة الجديدة، حياة الأرض، التي جعلت من آدم رجلًا يشقى ويتعب وجعلت من حواء امرأة دورها الرئيسي هو الإنجاب.

ولكن كان حُب الإله للبشرية قويًا بقدر حزنه على ما آلت إليه صنعة يده، فكانت خطة الإله هي أن يبذل نفسه من أجل البشرية فداءً لها، حتى يُتِمَّ عملية الخلاص، الخلاص من الخطيئة. «لَأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَدَّلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ.» (إنجيل يوحنا، الإصحاح الثالث، الآية ١٦)

ولكن موت الإله وقيامته لم تعني أننا تخلصنا إلى الأبد من نير تلك الخطيئة، ففي النهاية نحن مازلنا بشرًا، ولكن الخلاص كان معناه أنه هناك فرصة أخرى، تلك الفرصة تتاح فقط لمن يؤمن بخلاص المسيح ومن يعيش في توبة دائمة عن خطاياها التي يرتكبها «بمعرفة وبغير معرفة».

ولذلك كان المطلوب منا دائماً التطهر من كل فعل أو قول أو فكر قد يُعتبر خطيئة.

وعلى الرغم من أن العهد الجديد في المسيحية لم يأت بتعريف واضح للخطيئة، إلا أن اجتهادات الآباء هي ما كانت تهدينا الدرب الذي يجب أن نسير عليه ولا نحيد عنه أبداً. وكان من أسس ذلك الدرب «تجنب خطيئة الجسد»، وخطيئة الجسد كان يُقصد بها معظم الوقت «الشهوة».

كان الجسد بمثابة مسكن الشيطان الذي علينا دائماً أن نتجنبه ونتجاهل ما يشعر به، وكان الإله هو صورة الأب الذي يقوم دائماً بتربية و تقويم الأبناء الضالين، و كان كل من يهتم أو يعبر عن ما يختبره جسده أثناء فترة بلوغه هو بمثابة ابن ضال. هذا ما تعلمته، وهذا ما كنت مؤمنة به.

اتذكرُ جيداً أنه في إحدى العظات في الكنيسة التي كنت أرتادها، كانت إحدى نقاط العظة عن كيفية ضبط النفس، وبعد الانتهاء طرح أحد الأصدقاء سؤالاً لم يرد ببالي قط حينها، «لماذا خلقنا الله برغباتنا الجنسية، والآن يطلب منا أن نتجاهلها وأن لا نستجيب لها؟»

إذن فقد كانت نوال السعداوي بالنسبة لي هي «التمرد الكبير»، حيث كانت كتاباتها ثورة على سلطة تضع قواعد تُقيد الجسد. فلقد هدمت كل تلك البنية التي كنت أعيش فيها. ولم يكن من السهل عليّ أن أتبنى تلك الأفكار إلا أن نقاشات صديقات المدرسة هي ما حفزت لديّ الرغبة في التفكير خارج هذا الصندوق من الضوابط المتعلقة بالجسد، الذي أوصلني لكره جسدي وكل ما يمليه عليّ من احتياجات ومشاعر.

لم تكن صديقات المدرسة نسويات، ولكنهن كن متطلعات لاكتشاف آفاق جديدة للحياة. ولم تكن القراءة شئً يستهويني في نهايات المرحلة الإعدادية وبداية المرحلة الثانوية، ولكن كانت النقاشات والجدالات حول الموضوعات التي تُثار هي أكثر ما يمتعني في الحياة. وكُلما فُتح موضوع للمناقشة، استمر

أنا في طرح الأسئلة التي ترد على بالي، وأتذكر جيداً مدى الصدمة التي كانت تتسبب فيها أسئلتني.
وكأي فتيات في مرحلة مراهقتهن كان «الجنس» يردُّ كثيراً في أحاديثنا وهممتهنا.
وكانت نوال السعداوي تُذكر في تلك الأحاديث، ككاتبة تتحدث بجرأة ودون خجل عن احتياجات
النساء الجنسية وعن أجسادهن، مما كان يثير انبهارني وشغفي لقراءة كتاباتها.

تطورت أفكارني جراء المناقشات وبعض القراءات التي لم تكن كثيرة، وبدأت أتساءل عن تلك
القواعد المقيدة للجسد، ومدى أهميتها. ومع مرور الوقت تطورت تساؤلاتني.
وبدأت أدرك أن التمرد على السلطة هي جزء أساسي من رفضي لكل ما هو مُقيد لي ولحرיתי.
ولكنني أدركتُ أيضاً أن الصراع ضد الأبوية لا يقتصر فقط على التمرد على الدين والرجال؛ فلقد علمت
أن الذكور هم أيضاً ضحايا لنفس المنظومة الأبوية التي تزرع بداخلهم أنماط سلوكية معينة حتى يصبحوا
«رجالاً» ملائمين لدورهم الاجتماعي المفروض عليهم، وهذا لا ينفي أن لديهم امتيازات في ظل تلك
المنظومة.

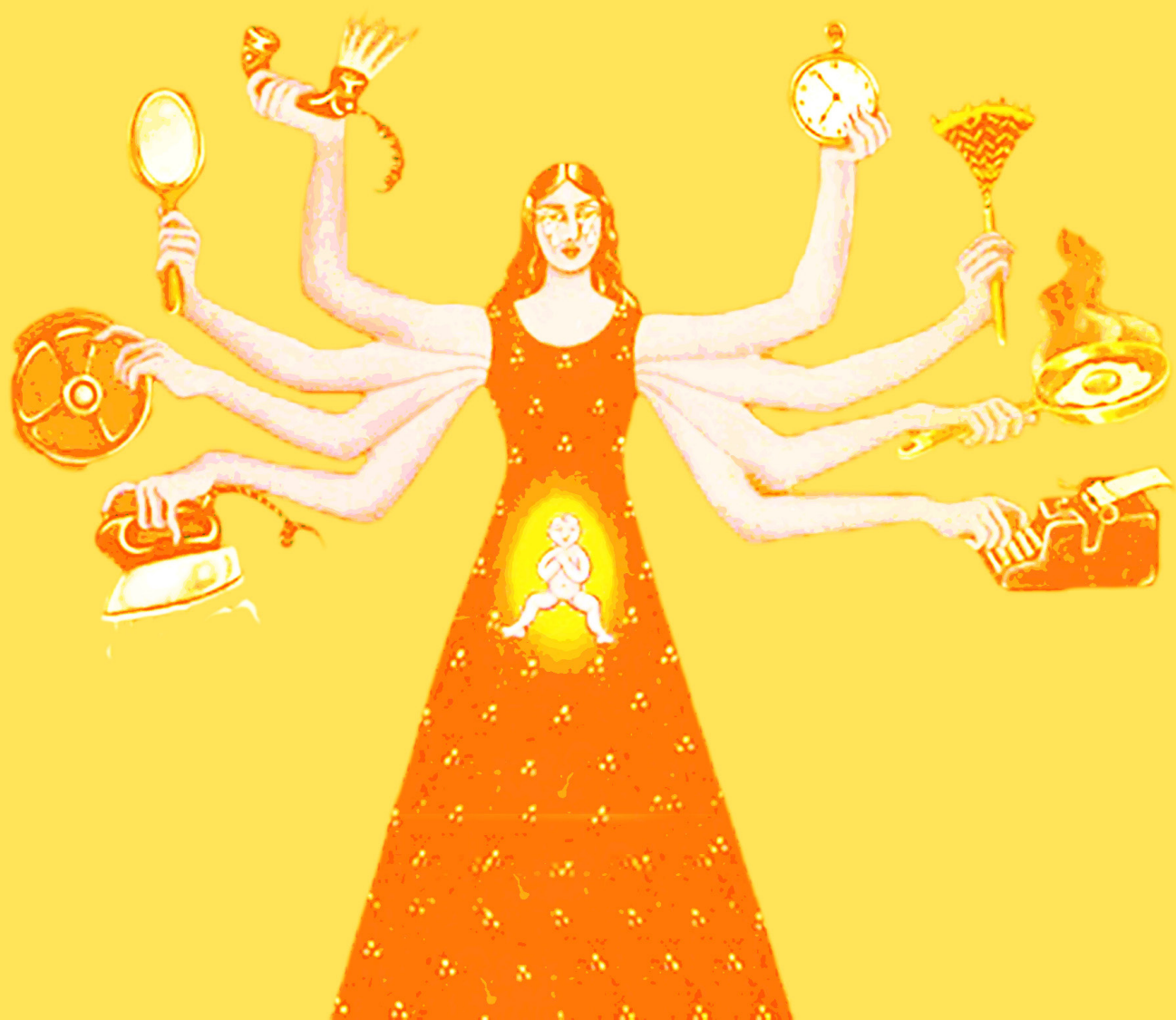
طبيعة حياتي كفتاة مسيحية مصرية، من الطبقة الوسطى، هي ما شكلت وعيي، ومحطات
حياتي بكل ما احتوته من مواقف وأشخاص وقراءات، هي ما جعلتني أعني وأدرك جزءاً من النظام المعقد
التي يتحكم في حياتي وحياتنا ومصائرنا.

لا أشعر بالتمييز ضدي فقط لأنني «أثني» - كما يصنفونني-، ولكنني لطالما شعرت بالتمييز
بسبب انتمائي للأقلية الدينية في مصر، كمان أنني تنبعت للتمييز والاضطهاد الذي كنت سأعرض له إذا
كنت من طبقة اجتماعية أقل أو من عرق مختلف.

هذا ما لم تتحدث عنه نوال السعداوي في كتاباتها، أننا لسنا مضطهدات/مضطهدين بسبب أنواعنا
الاجتماعية فقط، ولكن أيضاً قد نضطهد بسبب معتقداتنا، لوننا، ميولنا الجنسية، طبقتنا الاجتماعية،
بعдна عن المركز.. الخ.

ولهذا أدركُ الآن أن النضال ضد الأبوية لا بد أن يشمل نضالاً ضد الطبقيّة والعنصرية و الطائفية.. الخ، فكل تلك الأشكال متقاطعة تتسبب جميعها في قهر الإنسان، و هذا ما فتح ذهني لفهم مدى تعقيد هذه المنظومة التي نحيا بها، وهو ما دفعني لمحاولة فهم أعمق لما قد يبدو متعلقاً بالمجال العام ولكنه في الواقع يؤثر ويتفاعل مع حياتي الشخصية.

في النهاية، على الرغم من اختلافي الآن مع الكثير من كتابات وآراء نوال السعداوي، إلا أنني أدرك أنها كانت من أهم محطات تشكُّل وعيي، ووعي الكثير من بنات وأبناء جيلي، وكل ذلك بسبب كتابتها وتوثيقها لكثير من تجاربها الحياتية وتحليلاتها.



الراوية

في حضرة الشك!

وجدتني أصمتُ تمامًا حينما بادرنِي بسؤاله: لماذا النوع قضية؟

بالنسبة لي، امرأة ريفية الأصل تقليدية المنشأ روحانية الوجد تعلمت في مؤسسة دينية؛ مالذي دهاها لتهتم بقضية كالجندر؟

بعد انتهاء مراسم عزاء والدي بل وانتهاء العدة، وجدت أمي بثوب الحداد الأسود لا تنزعه. الأمر لم يقتصر فقط على الثياب بل حتى لا يحق لها التزيّن بأدوات بسيطة كالكلخ وخلافه، بل لا يحق لها حضور المناسبات الاجتماعية «الأفراح» وغيرها من التقاليد التي فُرضت على كل امرأة مثل أمي في قريتنا. وجدتني أقارن تلك الحالة الأكثر تقدماً قليلاً بعادات الديانات الهندية القديمة التي كانت تأمر الزوجة بقتل نفسها بعد وفاة زوجها، هُنَّ الآن يفعلن ذلك بصورة مغايرة.

في المرحلة الإعدادية، وأنا أدرس مادة الفقه، في دروس الإمامة « بأحقية الصبي المميز الذي لم يتجاوز عمره الإثني عشر عامًا بأن يؤم امرأة بالغة الرشد في الصلاة»، تساءلت بأي حكم صدرت هذه الفتوى؟ الأسئلة كانت -ومازالت- تثير قلقي واندهاشي منذ مراحل المراهقة، في تلك الفترة اتخذتُ قراراً ألا انتمي إلى مذهب أو جماعة أو حزب، سأتعرف عليهم دون أن أكون منهم. ارتدتُ المساجد حيث كانت تُقام دروس الشريعة على طريقة مذاهب الأصوليين فترة تزيد عن ٦ سنوات، ثم بالطوائف الروحانية، وكان لي شيخٌ ماهرٌ في علم أصول الفقه وكانت أكثر جدالاتنا عن من له الأحقية في تجديد الفقه المعاصر وإصدار الفتوى لمدة تزيد عن سنتين.

في مرحلة الجامعة، وبعد تعمدي دخول كلية الدراسات الإسلامية، وأنا أقرأ كتاب تحرير المرأة في عصر الرسالة لـ عبد الحليم أبو شقة؛ وهو كتاب يتحدث عن تحرير النساء في عصر الإسلام مستشهداً بكل أدلته من الصحيحين البخاري ومسلم. كلما تمعّنت في القراءة كنت أُلقي بالكتاب بعيداً عني، خوفاً من أن تتشوه صورة النبي محمد في ذهني، ليس هذا صحيحاً! ليس عادلاً أن يصفوه هكذا، البخاري مخطئ، التاريخ مُزيّف. وكانت بوادر الشك تحفر طريقها إليّ..

في تلك اللحظة كنت أدعوُ الله كثيراً أن يهديني للحق! أن ينير دري بالصواب. وكنت اتناقش عادة مع ثلاث من الأصدقاء من هم في مثل عمري أو أقل، وكانت لدينا نفس الحيرة. إلى أن وقعت عيني على إحدى المحاضرات لأحد المفكرين المعاصرين عدنان إبراهيم بعنوان « هل حواء خلقت من ضلع آدم؟ » كانت أطروحته شبه منطقية وكان يدعو إلى أنها هي الأصل لا آدم - كما استدل عدنان-. عكفت على منهجه أتطلع إليه ثم غيره وغيره لمدة دامت أكثر من ثماني أشهر ليل نهار، إلى أن وصلت لنتيجة تقلل حيرتي وتعرفت على مناهج لمجددين في قضايا الفكر الإسلامي مع تحليلهم للأحاديث النبوية واستخلاص ما يوافق منها كتاب الله باختلاف أفكارهم ومذاهبهم، وهم الأكثر منطقاً من الأصوليين. بدأت مع الوقت خطواتي الأولى وقررت أن أكون إحدى المجددات في فهم آيات القرآن المتعلقة بقضايا النوع.

وبعد مرور شهر على بداية اختلاطي بأفكار وأشخاص تختلف كثيراً أو قليلاً عن بيئتي التي توصي بعدم التأخير، أو التكلم بحدود مع الجنس الآخر أو في الشارع عموماً، أو حتى ارتدائي للملابس الشرعية، وجددتني أقف عند تلك الحيرة ثانية، في إحدى النقاشات طُرح سؤال: هل تعتقد أن زينب الغزالي نسوية رغم أنها كانت تضع حدًا في القضايا الدينية؟ كانت أغلب الإجابات بـ لا. شعرت بقشعريرة تملكت جسدي، هل يعني ذلك أن انتمائي لعقيدة ما أو فكر ما يلغي جهودي تجاه النسوية؟ لماذا ننكر جهودها نحو الإصلاح لمجرد أنها وضعت حدًا لمبادئ أو قوانين تؤمن بها، ثم بدأت أفكر في الحدود، من الذي وضعها وهل علينا كسرهما أم تطبيقها؟ أم كسر البعض وتطبيق الآخر؟ وما هي الحدود التي يجب أن نتبعها كنسويات حتى نحصل على هذا اللقب، في اعتقادي الشخصي جدًا أنني من حقي كإنسان أن أعبّر عن القضية التي أهتم بها ولتكن قضايا لا تخص المرأة بل النوع، ولا أجد تعارضًا إذا وضعت حدًا لمعتقد أو فكرة ما في تلك القضية والتزمت بها على نفسي، قد تراها أنت خارج إطار حدود أفكارك، بالمثل لا يحق لي أن اعترض على حقِّ تراه مشروعًا لك أو للفئة التي تنتمي إليها لمجرد أنها تخالف معتقداتي. ومن منطلق القاعدة الذهبية التي تقول «لا ضرر ولا ضرار» فما دمت لم تحكمني عليّ بالتخلف لمجرد

ارتدائي قطعة قماش وتحديثي عن حقوقي كامرأة ومحاولتي البحث عن مدى حدوديتي في تلك الحقوق مثلاً؛ لا أحكم أنا عليك بلقب ساذج مثلاً أو أقلل من هويتك العربية (بما أنها تجمعنا سوياً) لأنك تؤمن بالاشتراكية أو تعتقد بأن الخلاص في أفكار ماركس مثلاً. كلانا عايننا العنصرية من أطراف مجتمعنا، من الاضطهاد ومن الأحكام المسبقة التي لا تنتهي وكلانا لجأ إلى الجندر لبحث عن حقه كفرد يعبر عما يقتنع به دون حصره في تقاطعات وكلانا وقع في تلك الحفرة مرة أخرى، سواء كنا نمارس ذلك حينما نقرأ أفكاراً لا تعجبنا أو حتى عندما نتناقش في قضايا ونسمع أصداء آراء تخالف آراءنا، سواء كنا نفعل ذلك أمام الآخر «المختلف» أو أمام أنفسنا «وحدنا» ونحن نردد الحديث ونسّقه تلك العقليات ثانية أو حتى في أمسيات ليلية مع أصدقاءنا نهرب من بؤسنا الذي نعيشه بأن نستخف بآراء لا تشبهنا. آراها عنصرية بثوب جديد، أن نحد من اجتهادات الغير لمجرد اختلافه عنا. شاء القدر أن تكون النموذج الذي اتكلم عنه تنتمي إلى ما يسمى بالنسوية الإسلامية وإن كنت اتمنى أن تكون شخصاً لا ينتمي لدائرة اهتماماتي حتى اختبر نفسي صدقاً في الحكم عليها. على كلٍ لا تهتم المسميات أن تكون «نسوية» أو لا الأهم أن تصنع تغييراً ذو قيمة. أتذكرُ حينما وضعت فرنسا قانوناً بإلغاء الحجاب في المدارس والجامعات الحكومية، تلك الضجة التي أثارت غضب الشرق. حينها كنت أفكر في الأقليات، ومازلت أذكر تلك الواقعة وأتعاطف مع من ينتمي إلى دائرة الأقلية في أي مكان في بقاع الأرض.

وجاء الاختبار، التعرف على من يتعرضون للقهر بسبب هويتهم الجندرية والجنسية من خلال وقائع يتحدثون بها عن معاناتهم بحذرٍ شديد في أن تُكشف هويتهم، عن صراعاتهم اليومية ، انتهاك حقوقهم وحررياتهم. لا أنكر أنني وقبل عام واحد فقط كنت انظر إلى القضية باشمئزاز بحكم ترسخ الآراء الدينية التي تلقيتها منذ صغري والتي تتلخص في قصة قوم لوط، أعيد التفكير. أليس هم أقلية؟ ألا يستحقون الاحترام والتعاطف؟ ألا يستحقون احترام مساحاتهم الشخصية والتي لا تتعارض مع مساحاتك أيضاً؟ ألا تنزعجين من التمييز؟ وهم كذلك أيضاً!

وأنا هنا ليس لأصدر حكماً في هل هي حرام أم حلال أو هي عدم نضوج أم رغبة حرة، ما أفكر

فيه هو إذا كان تعريف الحريات في الفكر الغربي هو ألا تتعدى حريتك حدود الآخر، فلماذا حتى الآن تستنكر أغلب المجتمعات هؤلاء؟ ولماذا يحرمها الدين؟ وهل يعني بتحريم الفعل أن أتعامل بتفرقة أو تمييز ضدهم؟ مازال عقلي لا يستطيع أن يربط بين حكم النهي واحترام حريات الغير وبين ما حدث لزوجة لوط والتي تخبرنا الكتب المقدسة بأنها نالت العقاب مثل قومها فقط لتأييدها لهم. هل يعني ذلك أن التعامل بإنسانية مع من يختلف عني أنني سأنال عقاب الله؟! و لماذا في الأصل نملك «رغبة جنسية» وما الذي يحدد طبيعة تلك الرغبة لدى كل إنسان؟ وما الهدف من وجودها؟ هل من أجل الإنجاب فقط؟ ماذا عن العاقر؟ وهل من أجل ذلك ينكر المجتمع فكرة زواج المثلي لأنه لا يسعى إلى الإنتاجية؟

تطرق عقلي إلى فكرة الحجاب، لماذا فُرض الحجاب؟ ولماذا يُرفع عندما تصل المرأة لسن اليأس؟ ولماذا يجوز رفع الحجاب أمام النسوة دون الرجال؟ كما أخبرونا الصغر أن إلزامية الحجاب «وهو إخفاء مفاتن جسم المرأة عن الرجل الأجنبي عنها» لوجود عامل الانجذاب، هل معنى ذلك وأنا امرأة تلتزم الحجاب أن ارتديه في وجود النساء لاحتمالية تواجد مثليات في محيطي مثلاً (إذا كان فرض الحجاب من الأصل لوجود عامل الانجذاب) أم ما الحكمة من شرعيته؟ أعلم أن الكثير من دراسات المفكرين المعاصرين الإسلاميين وصلت إلى نتيجة بعدم فرض الحجاب حتى أنني أتذكرُ آخر دراسة قرأتها لما وصل الباحث



لنتيجة بوجوب الالتزام بلباس فضفاض لا يظهر ملامح جسم المرأة مع إباحة ظهور الرأس، على كلٍ ورغم اقتناعي التام بحجابي كاختيار حر فقضية الحجاب اعتبرها شخصية لكل امرأة فكما هناك حرية في اختيار العقيدة فهناك أيضًا حرية في اختيارك لما هو غير ذلك.

في إحدى المرات وجدت أمي تشاهد مسلسلًا تركيًّا يتحدث عن زوجين تعاني الزوجة العقم فلجئًا إلى عملية تخصيب خارجي مع توفير أم حاضنة يتم زرع الجنين في رحمها، وهي تحكي لي باختصار أحداث المسلسل عقبتم أمي «بس طبعًا دا حرام» أي فكرة زرع جنين من بويضة مخصبة في رحم امرأة أخرى، لفتت انتباهي القضية ثم بدأت أفكر في أبعادها، لماذا هي حرام؟ ولماذا هي حلال أيضًا؟ إذا كانت الرضاعة توجب الأحكام الشرعية من إرث وتحريم في الزواج من الدرجة الأولى والخ، وبما أنه يجوز استئجار امرأة للرضاعة. فبأي منطق تم تحريم الأم الحاضنة؟

في كثير من الأحيان يتملكني الرعب وأنا استمع لآيات القرآن، وخاصة قوله « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا » هل يعني ذلك أن أتوقف عن الحديث مع المنتمي لما هو غيري؟ أن لا استمع إلى اللاديني أو الرباني مثلًا وهو يسرد تجربته الفكرية المستقلة تمامًا في حياته؟ وكيف والله قد أمرنا بالتعرف على غيرنا « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا». أفكار خزعبلية تتسلل يوميًّا إليّ دون أي أدلة فقط محاولة للفهم، تمزقني وترهق عقلي، تجعلني أخشى مصيري، أحيانًا أظن أنني قذفت بنفسي في منجم من نار لا فرار منه أشعر بأنني أودع ضريبة استقلالية الفكر وعدم الانتماء الكامل لأي مجتمع.





إيمان شحاتة

خطابات الحداثة
وإنتاج الجسد

«الروح هي سجن الجسد»

ميشيل فوكو - الضبط والعقاب 1975:30

أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، شهدت الفلسفة الغربية تغيراً في منظومتها المعرفية أدى إلى ميكنة متزايدة للطبيعة، ونشأة العلم الحديث، وتبني إطاراً من العملية، الوضعية، والمنطقية، وسيادة «حادثة بلا سحر». وفي حين أدت هذه المبادئ الفكرية إلى إسقاط «الروح» والتركيز على مادية الجسد، فإننا نرى تأكيداً للأولى في الاقتباس السابق. ولكن، ما الذي عناه فوكو بالروح؟ وكيف يمكن للجسد أن يسقط في فخ الروح؟ يلقي هذا الاقتباس الضوء على قدرة النقوش الثقافية المحفورة على تشكيل الجسد، والذي يصبح محكوماً من خلال عملية تؤكد أهمية الوجه المنتج لأجهزة الدولة.

بناءً على هذه التركيبة يستطلع هذا المقال السبل التي من خلالها تُدرك الأجساد والرغبات وتُحكم بالتركيز على ثنائية الجنسين وتكرارها من خلال الخطاب العلمي، الذي هو وجه غير قابل للتشكيك للحادثة بفعل موضوعيته المسلم بها. ومن ثم بالاعتماد على سياقات وأمثلة مختلفة، يوجه هذا المقال نظره إلى تخلل الفكر العقلاني للجنسانية في الحياة اليومية.

النوع وتأثير بني وعلاقات السلطة على الخطاب العلمي

بموازاة رسم حدود المكان في سياق نشأة الدول القومية ومحاولاتها للتوسع ومركزة سيطرتها، يصبح الجسد أيضاً موضعاً لرسم الحدود. تعبير وتصنيف الأجساد وترجمتها إلى ثنائيات مؤطرة وظيفية، يصبح أداة ضرورية لمشروع خلق الذات القومية. وتصبح هذه العملية طاغية إلى حد الظهور على أنها «طبيعية». ومن ثم فإن طغيان ثنائية «الجنس» تكشف عن نفسها في حياتنا اليومية وهي متضمنة

في سلوك روتيني متسق. فيذكر كل شخص بصفة مستمرة بكم أن تصنيفي «ذكر» و«أنثى» «جوهريين» ومنفصلين عن بعضهما البعض، كلما ملأ استمارة، ذهب إلى الحمام، أو أحيانا عندما يقف في طابور خدمة في هيئة حكومية. ونحن نرى دائما عديدا من المدونين المدافعين عن العدالة يتبنون خطاب النسوية الليبرالية السائد في محاولة لتعليم متابعيهم الفرق بين الجنس والجنوسة، بقولهم «الجنوسة هي مُنشأ اجتماعي أما الجنس فهو بيولوجي».

كما يقترح أحد التعريفات «يشير الجنس إلى اختلاف بيولوجي؛ الكروموسومات، التركيب الهرموني، الأعضاء الجنسية الداخلية والخارجية». ويمكننا أن نرى هذا التعريف وهو يظهر واقعا وموضوعيا بحيث يصور «الجنس» على أنه سابق للخطاب. ولكن، إلى أي حد يمكننا القول بأن «الجنس» هو قبل-خطابي؟ كما تقترح جوديث باتلر في كتابها ورطة الجنوسة فإن تصوير «الجنس» على أنه طبيعي هو منتج لخطاب الجنوسة في سياق علاقات السلطة. فثنائية وتأطيرية «الجنس» تُطَبَّع وتُحَفَظ من خلال استخدام خطاب علمي وضعي. فالخطاب العلمي قد قُبِلَ على نطاق واسع بوصفه لغة «محايدة» وموضوعية تصف «حقيقة الأشياء». ولكن السؤال «ما هو الحقيقي؟» مشحون سياسيا ويمكن الجدال بأنه خرافة مستمرة تشرعن الفاعلية الجنسية الذكرية والغيرية الجنسانية.

الأنثروبولوجية إيميلي مارتن في «البويضة والحيوان المنوي: كيف أنشأ العلم قصة رومانسية على أساس قواعد الذكر-الأنثى التقليدية»، تدلف إلى الفهم الثقافي للبويضة وللحيوان المنوي الذي تدعوه «قصة علمية خرافية». وبفحص اللغة العلمية المستخدمة في الكتب الدراسية للبيولوجيا، تلاحظ مارتن كيف أن البويضة تُرى وتُفهم بوصفها «سلبية» تنتظر أن ينقذها الحيوان المنوي العفي والقوي، والذي ينظر إليه على أنه «في مهمة». ومن ثم، فإننا نرى هنا كيف أن اللغة العلمية، أبعد ما تكون عن الموضوعية والحياد، هي مشحونة بمفاهيم ثقافية مشكلة مسبقا عن «الأنوثة» و«الذكورة».

ومن ثم فمن المهم أن نسأل أي خطابات حديثة أخرى -لصالح تعريف ماهية الحقيقة- كانت معنية بجعل هذه الثنائية الجسدية حقيقة. ويقودنا هذا إلى النظر في التضايف بين العلم والدين في عملية إنتاج «الطبيعة البشرية».

الجنسانية، الغائية، والتقاطعية بين الخطاب العلمي والديني في تصور الجسد

على الرغم من المفاهيم الغربية التي تصور الديني والعلمي/العقلاني على أنهما نقيضان، في سياقات مثل مفهوم فيبر «نزع الحدائة للسحر عن العالم»، فإننا نرى خطابات تعكس التقاطعية بين الاثنين في إطار من بنى السلطة. ومن ثم فإن السلطات الدينية والشخصيات العامة ينتحلون بصفة دائمة الخطابات العلمية والعقلانية الحديثة لفرض الثنائية الجنسية. فينظر إلى الانجذاب إلى الجنس الآخر على أنه شيء «باطني» متضمن في إطار غائي يشار إليه بوصفه «الفطرة» (الطبيعة البشرية). وهذا واضح في الاقتباس التالي عن الشيخ القرضاوي في حوار تليفزيوني:

«انظر، إن الله عز وجل قد خلق الإنسان من ذكر وأنثى ... فالانجذاب الطبيعي هو بين الجنسين، لأن القرآن يذكر أن هذا الكون أسس على الازدواج، وليس على المثلية. مبدأ الزوجية هو مبدأ هذا الكون... هذا مبني على سلوك الموجب والسالب، إلى حد أنه مبدأ أساسي للوجود حتى في الذرات. فالذرة مكونة من إلكترون وبروتون، أليست كذلك؟»¹

كما نرى في الاقتباس السابق للقرضاوي، فالازدواج التبسيطي للجنس يمدد ويعقلن بوصفه «نظام الكون» كما شاء الله أن يكون. ويفهم الجسد البشري على أنه مرتبط بالطبيعة بين «الذكر» و«الأنتى» والتي تخضع لغاية وظيفية «عظمى»: التكاثر. ومن ثم، وفي هذا السياق، يقدم الانجذاب إلى

1 Kugle, Scott Siraj al-Haqq. Homosexuality in Islam: Critical reflection on gay, lesbian, and transgender Muslims. Oneworld Publications, ٢٠١٠.

الجنس الآخر كما لو كان «بديهيًا»، ظاهرة علمية لا جدال فيها. تصور الجنسانية دائما في الخطاب الديني السائد على أنها تعمل في إطار مقيد بالوظيفية والغائية. ومن ثم، تبرر الثنائيات المنشأة على الأساس الاختزالي بأن للجنسانية غرض محدد هو «تعمير الكون». وأي رغبات تحيد عن هذا الترتيب الوظيفي تُظهر على أنها «غير طبيعية/شاذة» و ضد النظام الأساسي المحدد سلفا. ولكن إلى أي حد يظهر الخطاب الإسلامي الفخور بكونه «تقدميا» أنماطا بديلة في فهم الجنسانية والجسد؟

في سلسلته التليفزيونية «الطريق الصح» يشرح معز مسعود مصفوفة الغيرية الجنسية بادعاء أن تركيبة كل من جسدي الذكر والأنثى تجعل الجماع المثلي «غير منطقي». إضافة إلى ذلك في حلقة له بعنوان «كيف نتعامل مع المثلية والمثليين» يحاول مواجهة الخطاب العلمي الذي يطور أبحاثا حول إمكانية وجود أساس جيني للمثلية. وفيها تُطَبِّع الرغبة الغيرية وتصبح معيارية عندما يدعي أنه حتى إذا كانت المثلية «جينية»، فسوف تكون علة جينية، ومن ثم تصبح «ابتلاء» من الله. وبهذا المعنى نرى هنا تعبئة مختلفة لنفس الأسس الغائية المصاغة من خلال الخطاب الديني السائد. من خلال الأمثلة السابقة نرى كيف تصبح الأجساد أدوات للتكاثر، ومن ثم تتجسد العقلانية الأدوات أكثر في سياق تديني. ولكن، بم ينبئنا الإصرار على استخدام لغة علمية لتبرير دعاوى دينية؟ أي تضمينات توجد خلف عملية عقلنة الدين هذه؟ هذا الانتحال والاستعمال للغة علمية يشهد على قدسيتها، وسيادة حيدتها وسلطتها على تشكيل ما يرى على أنه طبيعي.

تشفير الرغبة في ظل حداثة إيقاعية

رأينا في القسم السابق كيف تُخضع الجنسانية لخطاب الوظيفية، ولكن كيف يمكننا القول بأن

الرغبة الجنسية تُشكل بواسطة إطار للقياسية والعقلانية؟ تماما كما تُشفر الأجساد في ثنائيات، يعكس الانجذاب الجنسي أيضا تمديدا لعملية التشفير هذه. وأفضل مثال لهذه الممارسة يُقدم في إنشاء وإملاء الفيتيش، والحادث في سياق، كما تشير جوديث باتلر، تُدمج فيه الرغبة وتُختزل في أجزاء بعينها من الجسد مثل الفرج، القضيب، الأرداف، والتهود (١٩٩٠: ٧١). وتصبح أجزاء الجسد هذه أدوات وعلامات قياسية للرغبة الجنسية ومن ثم تُكون وتُشكل الفيتيش^٢. وتعقلن صور الفيتيش هذه من خلال خطاب علمي تطوري وترى على أنها طبيعية. فعلى سبيل المثال، حاول بعض البيولوجيين التطوريين عقلنة فيتيش التهود باقتراح أن الدهن المخترن في النهد الممتلئ يؤشر للرجل أن المرأة تتمتع بصحة/قوام جيد وهي مستعدة لأن تحبل بالأطفال وتربيهم.

في سياق المدن المُشكّلة بخطابات الحداثة، لا تفلت الرغبة الجنسية من هذه الإيقاعات. في كتابه «التحليل الإيقاعي»، يناقش عالم الاجتماع الماركسي هنري لوفيفر كيف أن إنتاج الفراغ يقع من خلال إيقاعات حاكمة. وكما نرى من خلال لوفيفر، فإن الطبيعة التكرارية للإيقاعات تنتج الاختلافات (٢٠٠٤: ١٦)^٢. كيف يمكن تطبيق ذلك على الأجساد؟ يصبح هذا واضحا إذا ما نظرنا إلى الثنائية المنقوشة على الجسد على أنها اختلاف أنتج من خلال التكرار.

في خضم سيادة السلعة، يكون تحول الأجساد إلى أدوات والتشفير الاختزالي للرغبات نتائج لإيقاع سائد للعقلانية. في هذا السياق، تُعطي تعددية وتنوع الرغبة الجنسية بنية مقيدة وأدائية لتعمل في إطارها. ويُرى إيقاع العقلانية وهو يشكل الرغبة الجنسية على سبيل المثال في الرواية الشهوانية

٢ تعريب لـ Fetish والمقصود هو تكثف الرغبة الجنسية في عضو/جزء من موضوعها الأصلي أو في غرض مادي متعلق به إلى حد اختزال موضوع الرغبة في هذا العضو/الجزء أو الغرض واستبداله به.

الشعبية «٥٠ ظلا للرمادي»، حيث تأخذ السادوماسوسية صورة تبادل تجاري، حيث ينبغي للطرفين أن يوقعا عقدا وأن يقرئا شروط الاتفاق. ومن ثم فإن الطرف «الخاضع» قد طلب منه أن يراجع العقد ويشير إلى الأفعال والأدوات التي ترغب في تجربتها. ويأخذ التحكم باللذة صورته من خلال وجود قائمة شاملة للأدوات والأفعال الجنسية مطالبة الأشخاص باختيار الخيارات التي قد تُعظم قيمتهم الاستعمالية. يظهر تحويل الأجساد إلى أدوات بشكل أكبر من خلال مقال أخير بعنوان «تلطيف الشعور» كتبه أليشيا إلر، حيث «تندر»^٤ -وفق آليات عقلانية- يعيد تأكيد هذا الإنتاج للاختلاف من خلال «تسريع اتخاذ القرار المميكن، الذي يحولنا إلى كائنات ثنائية يمكنها تخطي الأسئلة والمشاعر العميقة.» وبهذا المعنى تصبح الأجساد أدوات للرغبة في سياق تصبح فيه الرغبة الجنسية خاضعة للتحكم فيها. ويشكل التكرار الحميمية في إيقاع دوراني تذكره إلر في مقالها «مِل يمينا، ارتبط، واعد، مارس الجنس، فك الارتباط، أعد الارتباط، أعد.»

كنتيجة، بالنظر إلى الجسد يمكننا ملاحظة أنه منتج لتفاعل خطابات متعدد للحدثاء تلقي الضوء على علاقات السلطة. فثنائية الجنس تُنتج ويحافظ عليها وتعاير، من خلال عملية عقلانية ووظيفية. والخطاب العلمي المشحون بالمصالح السياسية يستخدم لشرعنة هذا الإنشاء الخطابي. وظيفية هذه الثنائية هي أيضا متضمنة في الخطاب الديني، الذي ينتحل اللغة العلمية الحديثة ليملي «الحقيقة.» وتصبح الأوامر الدينية مشكلة بالفكر العقلاني، وتسعى بذلك لشرعنة الرغبة الجنسية الغيرية باستخدام حجة ما هو «بديهي.» وموازاة عملية تعبير الأجساد، تعقلن الرغبة أكثر ومُنهج من خلال التكرار. ولكن العديد من الأسئلة تنشأ في هذا السياق، بصفة خاصة حول فهم أجسادنا في إطار هذه المصفوفات التي تتحكم فيها بشكل منهجي.

٤ Tinder تطبيق هاتفني للتعارف واللقاءات الجنسية



مارادم

جيناتي التعيسة

«أنت سعيدة بحياتك؟» يسألني أحدهم، ربما بهدف إصدار حكمٍ عامٍ على أسلوب حياتي، أو ربما لأي سبب بريءٍ آخر، لا أدري!

لم يكن صعباً أن أدرك الوجه الأول لمرضي النفسي، الحزن غير المسبب، وفقدان الاهتمام والرغبة في أي شيء، في الحياة نفسها، الأصوات المؤذية التي لا تتوقف. لا أتذكرُ متى بدأ الأمر بالضبط، ولكنني أتذكرُ متى أدركتُ أن هناك مشكلةً ما، وأن تلك المشكلة جدية ولن تتوقف. أتذكرُ أنه لازمني فزعٌ بلا سبب لعدة أيام وكنت أفكر في الموت بلا توقف، كنت في الواقع أخطط للموت، أقدمتُ على الانتحار ولكنني ترددتُ وخفتُ، ولم تكن المرة الأخيرة. الاكتئاب يتنهكُ رأسي وأفكاري، يفسد عليّ كل ما أحب، يفقدني فرصاً وقائمةً طويلةً من الأصدقاء، يسحبني في هوة مظلمة لا أحبها ولا أريدها. حالة انعدام الحياة تلك ليس من الصعب الاعتراف بإشكاليته، بأنها ليست جيدة وليست صحية. عندما كان يسألني أحدهم ما إذا كنت سعيدةً بحياتي، كنت أفكر في تلك اللحظة، وأفكر إنني لو أجبتُ بالإيجاب فسأكون كاذبة، وإن أجبتُ بالنفي فسأكون كاذبة أيضاً بطريقة ما، فأياً كان ما سيعتقدهُ الشخص عن سبب عدم سعادي لن يعرف أبداً عن ذلك المشهد، ولن يقترب أبداً من رؤية ذلك الجزء من حياتي. كنت أشعرُ بشيء من الخجل، أو بالذنب، كأنني أخطأت في شيء ما وتعاستي تلك هي العقاب.

لدى عائلتي تاريخٌ طويلٌ مع المرض النفسي، ولكننا لا نتحدث عن الأمر رُغم ذلك، وإن حدث ومر ذكره على ألسنتنا تلاحقنا نظرة خزي من مكان ما، نظرة اعتذار، أو خجل، يصبح الجو متوتراً وغير مُتقبَل حتى ينتهي الحديث في هذا الموضوع ويُغلق وتعود الأمور لمجراها الطبيعي. لازلتُ أجدُ صعوبة وعدم راحة في الحديث عن صحتي النفسية حتى مع المقربين مني، أشعر بعدم اطمئنان حتى عند كتابة تلك الكلمات، أشعر وكأنني أقوم بشيء خاطئ.

إدراكي للوجه الآخر من مشكلتي النفسية كان أصعب وأطول نسيًا، فعندما لا أكون في فترة اكتئاب، أجد نفسي في سعادة بالغة وانتشاء بلا أي سببٍ محددٍ أيضًا، لا أخطط للموت الآن، بل لغزو العالم، أو تعلّم ١٧ لغة جديدة، أو قراءة ألف كتاب في ٢٤ ساعة، لا أنام ولا أكل، أتكلّم وأكتب بلا توقف، عن كل شيء وأي شيء بحماس وقطار أفكارٍ لا يتوقف. أفكاري سعيدة وفخورة وطموحة بصورة بالغة، والأصوات التي كانت تخبرني بأنني عديمة القيمة، تُخبرني الآن بأنني أملك العالم وأني أنجح وأسعد إنسان على الأرض. كل تلك الخطط غير المنطقية تفشل ويخفت ذلك الحماس مع الوقت وتكتمل الدائرة بأن أعود مرة أخرى لنقطة الاكتئاب. كنت اعتقد أن الاكتئاب هو المشكلة، هو السبب في فشل تلك الخطط، ويصبح هدفي من الخروج من الاكتئاب هو العودة إلى السعادة والانتشاء مرة أخرى، لأنه لا يمكن أن يكون هناك مشكلة في السعادة أليس كذلك؟

السعادة ليست فقط الهدف الأسمى من كل شيء تفعله، إنها معيار نجاحك أو فشلك، معيار كونك على حق أو على خطأ. منذ وقت طويل توقفت أو حاولت التوقف عن الدخول في جدالات في دوائر الاجتماعية الصغيرة والكبيرة، لأنها تفضي في النهاية لسؤال خبيث يجعلني أشكك في كل شيء، أنت سعيدة بحياتك؟، السؤال الذي يجعل كل شيء أو من به أو أفعله يبدو بلا أي قيمة، لأنه لا يجعلني في النهاية سعيدة، إن الاعتراف بأنك غير سعيد هو اعتراف بأنك مذنب وأنك فاشل وعلى خطأ. ربما يرجع ذلك لتحول السعادة لواحدة من السلع الأكثر رواجًا: أعمل جاهدًا لتنجح، عندما تكون ناجحًا يصبح لديك أموال، بتلك الأموال يمكنك أن تستهلك سلعةً وتلك السلع تجعلك سعيدًا، إن لم تكن سعيدًا فهذا يعني أنك تقوم بالأمر بصورة خاطئة، أعمل بجهد أكبر، أجمع أموالًا أكثر وأستهلك أكثر. فالسعادة هنا ليست صورة لمشاعر كالحزن والخوف والغضب، ولكنها سلعة نهائية، مكافئة، قيمة لها عرض وطلب ولها سعر وذلك السعر هو إتباع النظام وبذل الجهد.

كان إدراكي للوجه الآخر من مشكلتي النفسية سبباً أساسياً لتساؤلي المستمر حول «السعادة» كهدف، وضع تساؤلي هذا عدة إشكاليات سببها هذا المبدأ لي بشكل شخصي، أولها كان تحديد حرية اختياري بما يراه المجتمع مقبولاً. فمثلاً كان رد الفعل الثاني لزميلتين بعدما عرفتا بميولي الجنسية المثلية، أن أخبرتاني بإشفاق أنني لست طبيعية وأني لن أكون سعيدة أبداً في حياتي لأنني سأظل داخل خزانة لبقية حياتي. فأصبحت مشكلة اضطهاد المثلية خطأي أنا وليست خطأ المُضطهد، ببساطة لأنني لست سعيدة، والحل هنا ليس أن أسعى لتقنين حقي في الاختيار وأن اتبع أسلوب الحياة الذي يناسبني، بل أن أسعى لما يجعلني سعيدة وهو في تلك الحالة أن أكون طبيعية غيرية.

وثانيها تقويض المشاعر الأخرى والتقليل من أهميتها باعتبارها أصل المشكلة وليس رد فعل لوجودها، فيما أن السعادة هي الحالة الأفضل التي يجب أن توجد وتستمر فإن أي مشاعرٍ أخرى لا تتوافق مع السعادة خاطئة، وعليها أن تنتهي بالضرورة، فمثلاً الحديث عن المرض النفسي مع أسرتي يسبب نوعاً من البؤس والقلق وبالتالي فالمشكلة تصبح في الكلام وحل المشكلة يقتصر في التوقف عن التكلم حول الأمر. بدلاً من أن يكون البؤس والقلق تعبير عن وجود مشكلة تستدعي حل، والحل هنا هو حل المشكلة نفسها «المرض النفسي» وليس التخلص من القلق.

جيناتي التعيسة ساعدتني في إيجاد بعض الإجابات، والكثير من الأسئلة التي لازالت تشغلني، ولكنني توقفت عن الشعور بالخجل لكوني غير سعيدة، وتوقفت عن «البحث عن السعادة»، أصبحت أسعى لإدراك مشاعري وتقبلها والتعبير عنها بصورة صحية. في حياتي السعادة، كالحزن والغضب، تمثل مشاعر وقتية مرتبطة بأسباب معينة، أو حتى بلا أي أسباب، وليست أهدافاً في حد ذاتها. في الواقع أنا لست سعيدة بحياتي، ولست تعيسة كذلك، ليس لدي أي تصنيف نهائي بشأنها، إنني مشغولة بأن أعيشها الآن، أن أؤمن بما أؤمن به وأن أتبع أسلوب الحياة الذي أجده مناسباً.





می طرف

بیریود

نزلت من القطار بتعجلٍ. متأخرة كثيراً.. لدي العديد من المواعيد التي أحاول اللحاق بها بعدما تأخر القطار عن موعد وصوله ساعتين. لم يكن ذلك أسوأ شيء حدث، وإنما الأسوأ من كل ذلك كان ملاحظتي للعديد ممن يسيرون خلفي ثم يسبقونني قليلاً ويلتفتون ليرمقوني بنظراتهم المتفحصة باحتقار شديد ثم يديرون وجوههم فور أن أحرق في أعينهم متسائلة، كانت نظراتهم تثير في نفسي الكثير من التساؤلات، لم أفهم لماذا ينظرون إليّ هكذا!

متعبة ومرهقة لم أتم منذ يومين، هل يبدو عليّ التعب ولهذا ينظرون إليّ؟ ولكن منذ متى أصبح الناس ينظرون إلى المتعبين بهذا الاحتقار؟ هل هناك شيء مُمزق في ملابسني أو مكشوف؟ تفحصت نفسي مجدداً ولكن لم يكن هناك شيء، لم أفهم سر نظراتهم تلك إلا حينما وصلت المنزل وأدركت أن دماء دورتي الشهرية قد أعلنت عن نفسها في وقت غير متوقع. لم يكونوا ينظرون إليّ، كانوا ينظرون إلى دمي بكل هذا الاحتقار! تصور أن يتم احتقاري وإهانتني هكذا لشيء لم يكن لي يد فيه يوماً، لم استطع أبداً تفهم أن يعتبر أحدهم دمي نجاسة، وآخرًا يعتبره إثمًا من الله عليّ، وآخرًا يتخذه دليلاً على أنني أدنى منه عقلاً ودينًا أو أنني كامرأة أقل من الرجل نظافة وطهارة.

يأتون بأحاديث وآيات تؤيد تلك النظرات، فيقولون أن النساء ناقصات عقل ودين بسبب دماء دورتهن أو أن الحيض أذى. يفسرونها كما شاؤوا على أهوائهم، نستمع إلى المنابر في صلوات الجمعة تعظ الرجال باجتنابننا وضرنا وبأن أفضل تعامل معنا هو أن نساق مثل البعير، لا أعلم كيف يصدق الرجال هؤلاء الشيوخ فيما يقولونه أو حتى كيف تصدق النساء عن أنفسهن ذلك كيف يصدقون أن الله العادل من الممكن أن يخلق إنسان بصفات معينة ثم يُحقر من تلك الصفات، كيف يخلق الله الجميل مخلوقاً فقط ليعذبه، ليطم إهانتته وإذلاله طوال الوقت، كيف لهم أن يعبدوا إلهًا يظلم مخلوقاً ليس له أي ذنب سوى إمتلاكه عضوًا جنسيًا غير الذي يملكه الآخر، ليس هذا الله الذي أعرفه، الله يصنع الخير والجمال والعدل والرحمة وليس ما سواهم أبدًا.

يتحدثُ بعض الأصدقاء الذين يحاولون التحرر من ذكورتهم بعبارات ضخمة مثل أن المرأة كانت مقدسة يومًا ما في الحضارات القديمة، حينما كانوا يعتبرون الدم سر الحياة فأنت قدسيتهما من دمائها، ولذا فالمرأة أفضل من الرجل من وجهة نظرهم أو كما يزعمون، ويستدلون على ذلك بملكات الحضارات القديمة ودورهن العظيم في بناء الحضارات، بعضهم يرجعون سبب كل هذا الاحتقار والامتهان لظهور الأديان والتي تحتوي على كثير من النصوص التي تمتهن حقوق النساء وتضعهن في المرتبة الثانية بعد الرجال وتحت قوامتهم، والبعض الآخر يقول أن السياسة والصراع على السلطة هم السبب، والبعض الآخر يقول أن السبب اقتصادي، الحقيقة أنه لا يعني كل هذا .. لا أرى في كل هذه المناظرات سوى رد فعلٍ معاكسٍ طبيعي للتيار الآخر المتشدد، فعادةً يميل الناس إلى المغلاة في الأمر للدفاع عن ما يؤمنون به فحين يقولون أن المرأة نجسة نقول نحن أنها مقدسة كفعل تعويضي ومحاولة لطمأنة أنفسنا أننا لسنا كما يصوروننا هم، ننزوي بعدها في القوقعة الخاصة بنا في محاولة للتصالح مع أجسادنا التي فقدناها والتي انفصلنا عنها منذ سنين بعيدة.

لا أرغب في القداسة، أرى فيها وجهًا آخر للسلطة، كلما قال أحدهم أن المرأة مكرمة ومقدسة أو أن الأم لها منزلة عظيمة لدورها في تربية الأمم والأجيال والتنشئة الاجتماعية .. كل هذه المقولات تصيبني بالذعر الشديد، كل هذه المقولات أنتجت طوقًا آخر يضاف إلى الأطواق المحيطة بربقتنا حتى صرنا غير قابلات للخطأ، محصورات في مربع واحد يجب علينا التحرك فيه، وصار الخطأ مبررًا للرجل غير مبررٍ للمرأة، وصار كل شيء مباحًا للرجل محرم على المرأة، نحن مقدسات، مبعلات، كل شيء له حساب ولأن كل شيء تحت النظر يفقد حرته، فلا أريد أن ينظر إليّ أحدهم.

أريد فقط أن أمر في الطريق فلا يلحظ أحدٌ مروري، هل جربت من قبل أن تشعر بالخفة ؟
تمر خفيًا كالهواء، تعبر فلا يراك أحد، لا يهتم أحد لوجودك أو عدمه، أن تكون غير مرئي، لا وجود لك؟

يحدقون بنا حين نسير في الطرقات، يخترقون أجسادنا بأعينهم، فنشعر أننا مراقبون طوال الوقت تحت رحمة أحكامهم علينا، فمن كان حكمه رقيقاً اكتفى بنظرة متفحصة، وإذا لم يكن فنستحق منه ما هو أبشع من ذلك بكثير. نحن لا نأخذ من نظراتهم إلينا سوى كل إهانة وإحساس بالوجع والخزي والعار! لماذا يتلفتون إلينا وإلى أجسادنا بتلك الطريقة؟ .

صرت أفضل اللاوجود عن وجودٍ دميمٍ أحمقٍ، صار يؤلمني كل يوم حين أسير في الشارع، حين اجلس مع الأصدقاء، حين أتحدث مع أسرتي التي أنشأتني على احتقار نفسي، على الأحساس كل يوم بأني ابتليتُ بابتلاء ما، ذلك الابتلاء هو أنني أنثى، هذا الإحساس الذي تشعر به كل واحدة منا حين تأتي دورتها الشهرية، إحساس أن هناك حدث فارق قد يحول كل شيء إلى شيء آخر، كل إحساس إلي إحساس آخر كالذي شعرته صديقتي حين جاءتها دورتها الشهرية وهي تبلغ عامها الثالث عشر، قرر أهلها حينها ان تلتزم بزي معين، أن ينقلب شكل حياتها رأساً على عقب، طفلة في الثالثة عشر ترتدي حجاباً طويلاً وملابس فضفاضة. يوم واحد وحدث واحد فقط، كتلة من الدماء تقرر الزي والشكل والتصرفات والنمط الكامل للحياة، تصبح جزءاً من تشكيل هويتنا كنساء، نلبس الأسود والغامق في وقت الدورة، نتحاشى الكثير من الحركة، نضع الفوط الصحية في كيس أسود حتى لا يراها أحد فيفتضح أمرنا. نهمس للبائع بأننا نريد «أولويز» وكأنها جريمة، أو كأننا نطلب أشياء غير مشروعة، حتى أن المخدر لا يخبئونه بتلك الطريقة، وتصير كل متطلباتنا الأنثوية همساً بعد ذلك، بين النساء نقول «بريود» كي تكون أخف وطأة مما ننطقها بالعربية «الدورة» وعند الحديث مع الجنس الآخر يكون الكلام عنها بالإشارة «البتاعة» أو أي اسم آخر للإشارة إذا تجرأنا على ذكرها من الأساس لأنه شيء لا يجب التحدث عنه في المجال العام، كل النكات التي تطلق علينا، كل الهمز والاستهزاء، كل الاشمئزاز والتقرزز من رائحة الدم أو شكله.

اتذكرُ الفزع الذي رأيته في عيني أختي الصغيرة حينما جاءتها الدورة ومحاولتها لإخفاء ذلك حتى لا يتم وضع القيود عليها لكونها تحولت من طفلة إلى بالغة الآن، وما كانت تخشاه قد حدث

بالفعل، فصارت هناك تحذيرات على الملابس وشكل الجلوس والحركة والكلام وإيقاف اللعب مع باقي الأطفال. كلنا لنا نفس هذه الذكريات في أول يوم تأتي لنا فيه الدورة، الخوف من القيود التي ستفرض، هواجسنا من كل الأساطير التي كانوا يقولونها لنا من قبيل أنه من الممكن أن نحمل من مجرد جلوسنا مكان أي رجل، الخجل ومحاولات الاختباء، الشعور بالتيه، لا نعرف ماذا سنفعل أو من نحن؟ هل ما زلنا أولئك الأطفال الذين كانوا يلعبون بالأمس أم أن عهد الطفولة قد انقضى وصرنا جزءًا من عالم الكبار المليء بالحماقات والشر والقيود؟ نتخيل أن الله غاضب علينا فيعاقبنا بها فنبكي لكي يغفر الله ذنبًا لم نفعله قط، ذنب طفلة في الثانية أو الثالثة عشر من عمرها. إنه غالبًا ما يكون يومًا حافلًا بالبكاء. يُحكم علينا بأن تصير كل علاقتنا بأجسادنا هي الأم والخجل من انفسنا فقط، ومع الوقت يصحبه أيضًا شعور بالإهانة، نحاول تجنب التكلم فيه حتى الآن بعدما صرنا كبارًا.

لماذا نتوقف عن اللعب عندما تبدأ الدورة؟ تسأل ولا أعرف بماذا أجيبها فقد توقفت عن اللعب قبل أن تأتيني الدورة لأن معالم أنوثتي قد ظهرت قبلها بدعوى تلك الجملة التي أتذكرها جيدًا «جسمها فاير» لا يصح لها أن تلعب وسط الأطفال، لا أعرف حتى الآن ما هي مشكلتهم مع كل معالم الأنوثة؟ ما شأنهم بجسدي؟ ما شأنهم بدورتي؟ كل هذا يخصني وحدي، فلماذا كل هذا الذعر؟ البعض يحاول قولبتنا في دور الملائكة وتصويرنا بهالة مقدسة لا وجود لها، آخرون يعتبروننا مدنسات لا نستحق منهم سوى أن يعاملونا كأداة جنسية يمتلكونها للمتعة، يأتون بها وقتما شاؤوا ويلقون بها كيفما شاؤوا. نحن لا نريد قداسة، نحن لا نريد دنس، فقط نريد حياة تخصنا، لا يمجدنا أحد ولا يهيننا. حياة تخصنا في وطن طبيعي، ولكن ما الطبيعي في وطن يقتات على الذل والإهانة، كيف له أن يحترم نفسه أو الآخرين!



مغازي

مشاعرنا أيضا
سياسية

في الستينيات، عندما شكّل الجدال السياسي بأن (الشخصي سياسي)^١، اكتسب الأمر زخمًا كبيرًا بين الحركات النسوية التي احتضنته كموقف، بسبب تصريحه القوي الذي يسلط الضوء على العلاقة بين التجارب الشخصية، والبُنى الاجتماعية والسياسية على نطاق أوسع. تم استخدام العديد من الأمثلة لتأكيد هذه الحجة خاصة فيما يُعنى بالحياة الشخصية للمرأة مثل الاعتداء الجنسي والعنف المنزلي باعتبارها قضايا سياسية وليست أحداثًا فردية ومعزولة كما قد يفترض الكثيرون. مع استمرار الموجات النسوية وتقدمها تم احتضان التعبير «الشخصي سياسي» أكثر باعتباره الموقف السياسي متعدد الجوانب الذي يشمل كل من يدافع عن العدالة.

إذا كان الشخصي سياسي إذن فمشاعرنا سياسية أيضًا، في بعض الأحيان يبدو الأمر وكأننا لا نملك مشاعرنا بسبب المحاولات العديدة للسيطرة عليها، إعادة تشكيلها، إعادة توجيهها والتلاعب بها من قبل قوى خارجية أو ببساطة من خلال عدم قدرتنا على التعبير عنها على الإطلاق. كتبت سارة أحمد^٢ في ورقتها البحثية «**feminist killjoy** النسوية قاتلة الفرحة» قصة يمكن لمعظمنا أن يحس بالارتباط بها، فقد صورت مشهدًا على طاولة الطعام حيث يجلس الأب دائمًا على رأس الطاولة، ويجلس الجميع في المقعد نفسه ثم يتجسد جانب السيطرة من خلال محادثات مهذبة حيث بعض الأمور مسموحٌ بقولها، وإذا قال شخصٌ ما شيئًا إشكاليًا يصبح هو المشكلة نفسه.

الأب مثل مايسترو الاوركسترا الذي يملك السيطرة الكاملة بواسطة إشاراته فحسب، الأب مثال

١ «The personal is political» شعار تبنته الموجة النسوية الثانية

٢ Sara Ahmed أكاديمية نسوية بريطانية- أسترالية من أصول باكستانية ، تركز في بحثها عن تقاطعية النسوية والكويرية والعرق وما بعد الاستعمار.

للطيريركية والتي هي ذاتها القوة التي تملك سيطرة كاملة على مشاعرنا. البكاء علامة على الضعف، على الأقل هذا ما تم نقله لنا من خلال المجتمع، يصبح الأمر مُعقدًا أكثر عندما نُجندُ المشاعر، فلو بكى رجلٌ فهو جبان، ليس رجلًا بشكل كافٍ، ضعيف وفوق ذلك شاذ، وعندما تبكي امرأة فهي حساسة بشكل مفرط وعاطفية، وبذلك يصبح اجتماعيا محصورات في ذلك القلب الذي يفترض أنهم غير مؤهلات للقيادة. لذلك، نحس دموعنا لنبدو أقوىاء كما أخبرونا، ولكن كيف لنا أن ندعي القوة ونحن ممزقون من الداخل.

الحب سياسي، عندما يصير شريكك/ شريكتك موضوع استنكار اجتماعي، ثقافي وديني. عندما يتم إخبارك أن حبك غير طبيعي، وأنه لا يمكن أن يدوم بالطريقة التي تريدها، عندما يُجبرُ بعض الناس على أن يحبوا آخرين، ومن ثم يتم إجبارهم أيضًا على التوافق مع المفاهيم المحددة مسبقًا لما هو طبيعي. لقد جُلبنا إلى هذا العالم لكي نحب أبويننا بغض النظر عن أي شيء، ولكن إذا قرر شخصٌ ما ألا يحبهم؟ يصبح منبوذًا. كيف لك أن لا تكون شاكراً لهم بعد أن جلبوك إلى العالم؟ لماذا أنا مضطر أن أحب أولئك الذين لم يتركوا لي مجالاً للمناقشة وسيطروا على كل جانب من جوانب حياتي؟ بالحدة التي قد يبدو عليها الأمر ولكن لا توجد إجابة أخرى سوى أننا مبرمجين لنحبهم لأسباب اجتماعية ودينية.

الكره سياسي أيضًا، عندما تكره الرموز الطيريركية وتقرر أن تعبر عن هذا الكره بأي شكل فتنسحب إلى عاصفة من النقد من قبل مؤاليهم، لأن تحليك بالجسارة الكافية للتعبير عن هذا الكره يجعلك مشكلتهم، الشوكة الحادة في جانبهم التي يتمنون زوالها. عندما تروج وسائل الإعلام لأنماط جسدية معينة طبقًا لمعايير جمالية محددة، بلوحات إعلانية في كل مكان، تحمل صورًا لأجساد بيضاء البشرة ونحيفة وقادرة جسديًا فإن هذه الصور تجعل أولئك الذين لا ينتمون لهذا النمط الجسدي يشعرون بالتخطب ويحاولون بشتي الطرق الانخراط والانتماء لهذه المعايير التي قد تحفز كراهيتهم الذاتية

وتجعل حياتهم مزرية. عندما نخفي أنفسنا لأنه من غير المقبول أن نتصرف بشكل مختلف عما يميله علينا المجتمع . عندما نتظاهر بأننا شخص آخر، ونعيش كذبة وعند نقطة معينة تصير هذه الكذبة حقيقة تقريباً لأننا عاجزون عن تقبل ذاتنا بطبيعتها الحالية وعيوبها.

مشاعرنا تتخطى ما يبدو لنا كثنائية حب وكره. فداًماً ما يملى علينا كيف نشعر ونتصرف. كمثال، يتم توجيه النساء للابتسام في الأماكن العامة لأن المرأة المبتسمة مقبولة اجتماعياً أكثر من العابسة، البطييرية تتحكم حتى في تعابير وجوهنا. وحقيقة يبدو وكأنه لا يوجد مفر من هذا الشكل من السيطرة علي مشاعرنا، فقد تم توجيهنا علي تقبل والالتزم بهذه القوانين الاجتماعية . من السهل أن نفترض أن لكل منا خياره ولكن في الحقيقة نحن لا نملك الخيار، لذلك من الأفضل أن نعمل جاهدين للرفض، رفض هذا النوع من التحكم، رفض أن يتم التلاعب بنا وتشكيلنا ضد رغباتنا لتقبل الأشياء كما هي. فلا بأس أن نبتسم بمحض إرادتنا ولا بأس أيضاً بأن نكون عابسين، قابلين للعطب ولا بأس في أن نتقبل ذلك بدلاً من أن نشعر بالخزي. فمن حقي أن أبكي عندما أشعر بالرغبة في البكاء دون أن يقلل الأمر مني كإنسان، لأنه شعور يصلح كوسيلة لتكسير الصورة النمطية للبكاء والصفات السلبية التي تستتبع ذلك.

مشاعرنا المختلطة هي أدواتنا الشخصية لتحرر من التحكم المستمر بها، هي حقنا في أن نعبر عما نُحس بحرية كبشرٍ دون الانضباط الشعوري الزائف والابتذال الاجتماعي لما هو مقبول وما ليس كذلك. لذا يصبح من المحتم علينا استعادة مشاعرنا من قبضة أي رمز أبوي يحاول التلاعب بنا وتسييسنا بالطريقة التي يريدنا. حان الوقت لكي نرفض الشعور بالخزي من التعبير عن أي نوع من المشاعر، نرفض فكرة العواطف المجندرة، وأن المشاعر موجودة داخل الثنائية الجندرية وفقاً لقوانين الجندر. لأنه في النهاية تلك حياتنا وخياراتنا التي نحاول استعادتها والتعبير عنها.

